الشيخ محمد عبده
كفاحه ونجاحه
للأستاذ محمود الشرقاوى

ف يوم ١١ يوليو من سنة ١٩٠٥ توفى المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، وقد بقى اسم الأستاذ الامام بعد موته كما كان فى حياته إسماً عالى الذكر حتى ليكاد يذكر إلى جانبه ما قاله المتنبى عن المجد :

وتركك فى الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

كان اسم الشيخ محمد عبده فى حياته وبعد موته عالى الذكر ،

تقتضى أن أتفدى بالمدر قبل أن يتمشى هو بى .

وليس ببعيد أن تقوم دول الاستعمار جملة لا فرادى ، ومتضافرة لا متنافرة ، وقد رفعت بعض أحقادها وضغائنها على الرفوف ووضعت أيديها فى يد الشيطان فى سبيل الشيطان، وبذلك وحده تواجه أهدافها بقوة واتحاد ، متحايلة حينا ، صريحة سافرة حينا آخر ، فتجتمع على الأسلاب والغنائم ثم تنصرف إلى أوكارها تتوزع الجراح، وتقتسم الأشلاء ، والدماء الزكية الطاهرة تسيل من أشداق الوحشية الذرية ...

هذه هى « هيئة الأمم المتحدة » هل تزيد صورتها شيئا عن « عصبة الأمم » وهل تغيرت مبادىء ولون شيئا بتغير الزمن عن ميثاق الهيئة ؟ . كلا غير أن شيئا واحدا يجب ألا ننساه هو أن العصبة الجديدة قد تمخضت عن القرن العشرين أو قل القرن الذرى . وأخشى ما نخشاه أن يتحول العالم فى القريب غير العاجل إلى جزيرة بيكينى ليكون اسمه الجديد « المستعمرة الذرية » .

وبذلك وحده يصبح العلم لا وطن له ، والحضارة لا أصل لها، وتتناثر فى الفراغ أجزاء الطبيعة وأشلاء الإنسان وأضواء العلم

وتلك سياسة مرسومة سهرت عليها شهوات أهل الباطل فى غفلة من مفاخر أهل الحق وتكالب على تخاطيطها ورسومها شراذم الشذاذ والأفاقين ، فلنبحث عنها فى « قاموس الوحوش »

محمد محمود زيتونه

وكان شخصه فى حياته وبعد موته عظيم الأثر .

فلم كانت للشيخ الامام هذه المنزلة فى الحالتين ..؟

ترك الشيخ عبده مؤلفات كثيرة ، منها شرحه على نهج البلاغة ، وشرحه مقامات بديع الزمان ، وشرح على البصائر النصيرية فى المنطق ، وتفسير جزء « عم » ، والأسلام والنصرانية ، وهو مجموعة مقالاته فى الرد على هانوتو جمت فى كتاب ، وله كتاب ترجمه عن الفرنسية فى النهضة الأوربية ، ولكن هذه الكتب كلها ليس لها ، فى رأيى ، سوى قيمة جزئية محدودة . وبعض هذه الكتب لا يعرفها ولا يقرؤها الآن أحد ، حتى تفسيره الذى جمعه المرحوم الشيخ رشيد رضا ، رغم قيمته الذاتية وشهرته ، يصدق عليه أيضاً هذا الوصف الذى ذكرته عن بقية كتبه .

لم كانت ، إذن ، للشيخ هذه المكانة حياً وميتاً . ؟

أعتقد أن شخصية الشيخ وكفاحه هما اللذان جعلا له هذه المنزلة فى تاريخنا وتاريخ الشرق الحديث .

وقد كان يتخذ كتبه تلك ومحاضراته ودروسه ومقالاته وسيلة من وسائل كفاحه وتمكين دعوته الأصلاحية وبثها والعمل على نماء غرسها .

* * *

كافح الشيخ ، عندما عين محرراً أول للوقائع المصرية ، لأصلاح الأداة الحكومية وإرشاد الحاكم والمحكوم فكان من أقوى المكافحين .

وكافح ، معارضا ، الثورة العرابية ، لأنه كان من دعاة التطور التدريجى ، ولأنه كان متوجساً من الحركات العنيفة ، ولأنه كان ، أيضا ، سىء الرأى فى زعماء الثورة ، وخاصة عرابى ، فلما خرجت الثورة عن كونها حركة من الجيش ضد ما يراه ظلماً وهضما ؛ وانتقلت إلى أن تكون حركة من الأمة كلها ضد الإنجليز ، إنحاز الشيخ إلى جانب الثورة مع وطنه ، فكان فى معارضته وتأييده من أقوى المكافحين . وحوكم ، بعد فشل الثورة بوصف كونه من زعمائها وحكم عليه بالنفى سنوات ثلاث ، وكان إذ ذاك فى سن الثلاثين .

وكافح ، مع أستاذه جمال الدين فى باريس ، حين أنشآ مجلة

« العروة الوثقى » كافح مع أستاذه ضد الظلم وضد الاستعمار ، وكانت مجلتهما هذه ، التي لم يصدر منها سوى بضعة عشر عددا ، من أكبر أسباب القلق عند الإنجليز والفرنسيين ، ومن أكبر عوامل التنبه واليقظة عند المسلمين والشرقيين .

وكافح في لندن متحدثاً وخطيباً في مجلس العموم ، وسفيراً غير رسمي لدى رجال السياسة والصحافة من الإنجليز ، في سبيل استقلال مصر ووفاء الإنجليز بوعودهم في الجلاء عنها .

وكافح في بيروت في سبيل النهوض بالتفكير والتحرير الذهني ، وبيروت كانت في ذلك الوقت قطعة من الأمبراطورية العثمانية ، الأمبراطورية التي كان يحكمها السلطان عبد الحميد وتخضع لجبروته وسطوة جواسيسه الذين لم يكونوا يكرهون شيئاً مثل كراهتهم لكل تفكير وكل حرية .

وكافح في سبيل إصلاح التعليم الديني في مدارس الأمبراطورية العثمانية وفي سبيل إصلاح ولاية سوريا ، وكتب في هذا وذاك إلى والي بيروت وإلى شيخ الاسلام في الأستانة .

وكافح في سبيل أن تدرك الأمة الإسلامية ، والإسلام عنده جامعة ، أن تدرك هذه الأمة حقوقها قبل حاكميها . حتى قال هو عن نفسه إنه كافح « والأستبداد في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظلم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أي عبيد »

وكافح ، في مجلس شورى القوانين ، وكان عضوا ، دائماً فيه ، في سبيل تمكين سلطة الأمة والتوفيق بين المجلس وأصحاب السلطة ، وتنفيذ أكبر عدد ممكن من القوانين الاصلاحية .

قال ، وهو في انجلترا ، عن الخديو توفيق « إنه مهد لدخول الإنجليز مصر ، ولذلك لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، إننا لا نريد خونة ، وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية .!؟ » قال ذلك عن توفيق ونشره في صحيفة إنجليزية ، وتوفيق يحكم مصر ، وهو منفي عنها يتمنى لو يعود .

وقف في وجه الخديو عباس ، وكانت بينهما مودة ، عند ما أراد عباس أن يخلع على مفتي الملية ، الشيخ محمد راشد ، كسوة التشريفة ، وكانت القوانين لا تجعله مستحقاً لها ، رد على الخديو أمام شيخ الأزهر والعلماء رداً قاسياً جعل الخديو يتغير وجهه فيظاً ويقف حتى ينصرف من حضرته الشيوخ .

ووقف موقفه المشهود ضد رغبة الخديو عباس أيضاً في صفقة البدل التي كان يريدها للخاصة .

وكافح كفاحه الأكبر في سبيل إصلاح الأزهر وإصلاح العقيدة . وفي الكلمة التي قالها الخديو عباس عند تنصيب الشيخ الشربيني على الأزهر وتمريضه الجارح بالشيخ عبده حتى حمله على الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر ، في هذه الكلمات القاسية التي ألقاها الخديو عند ذاك ما يدل على ذلك المدى الذي بلغه كفاح الأستاذ الامام في سبيل رأيه وعقيدته .

* * *

أي ملك في جلدك ..؟

كلمة قالها السيد جمال الدين لتلميذه الشيخ عبده ولعلها أقوى كلمة وأصدق كلمة وصف بها الشيخ ، فقد كانت له أخلاق ملك .

شخصية قوية بل مسيطرة ، ومروءة ، وشجاعة ، ووفاء ، وكرم فياض ، ومحبة للخير ، ودؤوب في العمل للخير العام ، وتجرد من كل منفعة وغاية ذاتية . ودماثة خلق ، وسماحة ، وبر بالضعيف ، ورقة جانب .

تلك كانت صفات الشيخ عبده وخصائص نفسه ، وهو بها ، جدير بهذه المكانة المرموقة التي بلغها في مصر والشرق ، وأجمع عليها الناس بعد أن أدركوا هذه الصفات عنه .

* * *

هل نجح الشيخ عبده في كفاحه هذا ..؟

لقد كافح وتحدى وقاوم جميع القوى التي وقفت في طريقه وطريق دعوته الإصلاحية أو السياسية .

وأية قوى كانت .؟. كان منها الإنجليز أول الأمر ، وكان منها الخديو ورجال السلطان في الأستانة ، وشيوخ الأزهر ، وعوام الناس ، وطائفة كبيرة من الصحف . وكل من يمالىء هذه القوى ويتبعها ويتملقها ويسير في ركابها .

كانت كل هذه القوى مجتمعة أحيانا ومتفرقة أحيانا ، تصده ، وتتحداه ، وتناوشه ، ولكنه كافحها جميعاً متفرقة ومجتمعة . وكانت خصومات هذه القوى للشيخ لا تخلو ، في كثير من الأوقات ، من العنف والقسوة والأسفاف ، ولكنه غالبها جميعا